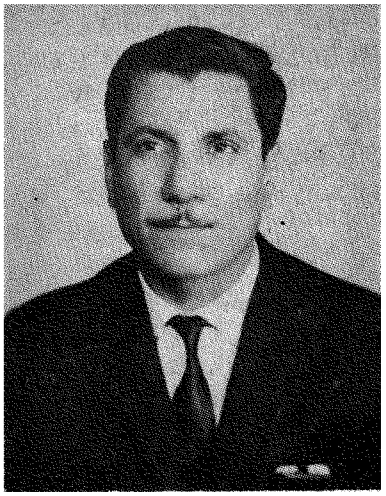

الالتزام في "سفر الفقر والثورة"

بقلم شوقي خميس

لعل عبد الوهاب البياتي هو الشاعر الوحيد من جيل رواد حركة الشعر الحر الذي ظل ملتزما حتى الان باتجاهه الواقعي في الفن ،في الوقت الذي تتعرض فيه الواقعية كاتجاه فني للانتكاس ، ليس على ايدي معارضيها فحسب ، وانما نتيجة لانحراف بعض من كانوا يؤيدونها بحماس شديد في البداية . ونعني بالتزام شاعرنا اختياره الارادي لموقف محدد من الحياة والفكر وانضمامه الى جانب المدافعين عن الاشتراكية وحرية الانسان والتقدم . ولم تكن المشكلة بالنسبة اليه ترديد مجموعة من الافكار النبيلة او تفاؤلا ساذجا او مساهمة بالنوايا الحسنة ، وانما كانت وما تزال مشكلة حياة باكملها بلا سكن ، بعيدا عن الوطن والابناء والصحاب والذكريات ، بعيدا عن الطيور والغيوم والبيو تالتي عرفها واحبها في صباه ، وبعيدا عن الشوارع والمدن والوجوه التي شاهدت حماسة نضاله شابا يتنقل من بلد الى اخر ، وينظر الى العالم من نافذة قطار بعيون المحكوم عليه بالنفي ، ولكنه كان يستطيع دائما ان يدافع عن نفسه وعن العالم ، ولم يتوقف ابدا عن الكتابة .

وفي ديوان « سفر الفقر والثورة » يضع الشاعر امامنا صورتين عظيمتين لمأساة البطل الملتزم ، الاولى تتمثل في قصيدته « عذاب الحلاج » ، والتي تحتوي على ستة اجزاء ينتظمها نسق درامي دقيق.. يتصاعد حتى ذروة المأساة في الجزء الخامس « الصلب » وتنتهي القصيدة في الجزء السادس « رماد في الريح » باكتشاف المعنى الكلي للمأساة . والقصيدة الثانية التي تعكس لنا مأساة البطل الملتزم هي قصيدة « محنة ابي العلاء » وهي مقسمة ايضا الى اجزاء عددها عشرة ويختلف بناؤها تماما عن القصيدة الاولى ، فهي تتخذ مسارا افقيا ، وتتحدد في شكل عرض لمواقف اساسية من حياة الشاعر الكبير لا يؤدي كل موقف منها الى الاخر ، ولا يرتبط به ارتباطا ضروريا ، ولكنها تصب جميعا في مركز واحد في النهاية لتعطينا اثرا كليا واحدا على الطريقة التي يتبعها شعراء الحكمة من قديم في انهاء قصائدهم .

في قصيدة « عذاب الحلاج » يبدأ الجزء الاول « المريد » لنشاهد البطل وقد توقف عن المسير مع حركة الحياة العادية متلهفا الى نوع اخر من الحياة لم يتبينه بعد ...

— ١ —

سقطت في العتمة والفراغ
تلطخت روحك بالاصباغ
شربت من آبارهم
اصابك الدوار
تلوثت يداك بالحبر وبالغبار

وينتهي الجزء الاول من القصيدة والشاعر يخاطب بطله الذي لم يزل غارقا في تلهفه النبيل الحزين .

وها انا اراك في ضراعة البكاء
في هيكل النور غريقا ، صامتا ، تكلم المساء

وفي الجزء الثاني من القصيدة يصور الشاعر مرحلة الوعي والارتباط بالواقع في حياة بطله الذي تمرد على الفقر والظلم الاجتماعي والعذاب :

ما اوحش الليل اذا ما انطفأ المصباح
واكلت خبز الجياع الكادحين زمر الذئاب
وصائدو الذباب
وخربت حديقة الصباح
السحب السوداء والامطار والرياح

... الى ان يحدث الامتزاج بين الرؤية الواقعية والوجدان الصوفي في شفافية باهرة :

— يا مسكري بحبه ،
محيري في قربه ،
يا مغلق الابواب
الفقراء منحوني هذه الاسمال .
وهذه الاقوال
فمد لي يديك عبر سنوات الموت والحصار

اما في الجزء الثالث فان الشاعر يوحي الينا بعرضية النظرة الرومانسية للحياة فيحكي تحت عنوان « فسيفساء » قصة مهرج احب ابنة السلطان ، وكان حبه يساعده على تحمل عبء حياته كمهرج، ولكن حدث ان مات ابنة السلطان — بلا سبب — كما تموت فراشة في الحقول ، فجن المهرج ولاذ بالصمت — وانتهت القصيدة . ويقول الشاعر في ختام هذا الجزء :

رويت ما رأيت
رأيت ما رويت
كان ويا ما كان

وكأنه يعلن انفصاله ، ويوحي الينا بانفصال البطل في نفس الوقت عن هذا العالم الغريب المحزن اللامعقول ، وكأنه اراد ان يصور لنا بطريق غير مباشر تلك اللحظة التي يتخطى فيها وعي البطل النظر الى الحياة على انها مجرد قصة محزنة ، لان له همومه الاخرى الاكثر جدية ، ولان العالم يلقي عليه عبء مسئولية فادحة يواجهها في الجزء الرابع من القصيدة حيث يحدث الصدام المنتظر بين البطل والخارج.

بحت بكلمتين للسلطان
قلت له : جبان

هكذا تتحول رؤية الحلاج الى حياة ، الى فعل ، الى ممارسة،الى موقف لتتوحد نفسه ، بعد ان قذف بنفسه الى قمة الصراع — ولكن الاخرين لا يتركونه . وفي الجزء الخامس يتجسد العقاب ، وتتقاطع الانغام في جمل قصيرة ومشحونة متوترة بين فظاعة الفعل اللانساني، وبين براءة الصيحة الصوفية الممتلئة بالحب . اننا حين نسمع صوت

البطل في قمة عذابه النبيل ، لا نتمكن من الحصول على متعة التطهر التقليدية ، فان الشاعر يؤكد ان كل ما حدث عن طريق التفصيلات الموجزة ، كان حقيقيا .

وقال لي اياك
واغلق الشباك
واندفع القضاة والشهود والسياف
فاحرقوا لساني
ونهبوا بستاني
وبصقوا في البئر ، يا محيري
ومسكري
وطردوا الاضياف

ولكن رغم كل شيء يظل هناك دائما امل في الخلاص .

فافتح لي الشباك ـ مد لي يديك اه .

لقد قطعوا اوصال الحلاج ـ ثم احرقوه ، ولكن اسمه ما يزال حرا يتردد كالنار والريح . لقد قطعوا اوصال الحلاج ثم احرقوه ولكنه حل في الحياة وانتصر على الموت ! كيف ؟ يقول البياتي في ختام القصيدة:

ـ اوصال جسمي اصبحت سماد
في غابة الرماد
ستكبر الغابة ، يا معانقي
وعاشقي
ستكبر الاشجار .

اما في قصيدة ((محنة ابي العلاء)) فان الشاعر عبد الوهاب البياتي يعطينا صورة واحدة للانسان في اطار عصر باكمله . ونظرا لاتساع المشهد ، فقد قسمه الشاعر الى عشر مستويات بحيث يمكن للمتلقي ان يكتشف الحقيقة من اكثر من جانب . وما اشبه اجزاء القصيدة العشرة باجزاء مسرح بالغ الضخامة ، يقسم الى عشر مستويات ، ليمثل عليه عرض هائل من فصل واحد . اقيم في مقدمته تمثال لفارس من النحاس ، رمزا لخواء القيم النفعية التي تتحكم في مقدرات اناس فقدوا الامس والحاضر والحلم يتراءون في خلفية العرض كالظلال .

هذا بلا امس وهذا غده قيثارة خرساء
داعبها ، فانقطعت اوتارها ولاذ بالصهباء
اشعل في الهشيم نارا وانتهى الصراع
وذا بلا شراع
ابحر حول بيته وعاد

وبعد ان يصور الشاعر الجو العام للمأساة ، يبدأ في تعريفنا بابي العلاء ، وشيئا فشيئا تتشابك خيوط القصيدة منطلقة من وعي البطل لذاته ورغبته المعذبة في تخطي هذه الذات في عالم محكوم عليه بالصمت والحزن : ـ مت وما تزال حيا انت والريح التي تبكي
تهز البيت في المساء
حرمتني من نعمة الضياء
علمتني ثقل غياب الكلمات وعذاب الصمت والبكاء
الشارع الميت غطى وجهه الصقيع
والباب اغلقت الى الابد
ثلاثة منها اطل في غد عليك
مقبلا يديك
لزوم بيتي وعماي واشتعال الروح في الجسد

ثم يدخل البطل في صراع مع الخارج ليستخلص حريته وصوته:

كنت اذا ما غاب عبر حجرتي القمر
وغسل المطر
ذوائب الشجر
انزع نفسي في بلاط قصره ، واكسر الحجر
اشد في قيثارتي الوتر .
امد للسحر
يدي التي تحجرت ، واصبحت
من دون ان ادري الى الامير
خنجره وصوته ـ صوتي انا الكسير
يدي ـ التي استرجعتها

ويبدأ الالتزام مرحلة ايجابية يرتفع فيها الشاعر ليؤدي دوره الحقيقي كشاهد على واقع مليء بالنفاق والزيف والتعاسة . كشاهد على عصر ساده الظلام :

وكنت انت بينهم عراف
وكنت في مأدبة اللئام
شاهد عصر ساده الظلام

والى هنا كان من الممكن ان يدفع المضمون الايديولوجي للقصيدة بشاعرنا عبد الوهاب البياتي الى الخطابة المملة ـ ولكنه كشاعر انساني وكفنان كبير استطاع ان يستمد من حياة البطل العادية ومن تجاربه مع الغربة والعذاب ما يخلق خلفية انسانية للصورة :

ابحث عن سحابه
خضراء ، عني تمسح الكآبه
تحملني
الى براري وطني

فمثل هذه اللحظة تحقق بتفاعلها مع النغم الاساسي في القصيدة ـ وهو يدور حول ان الشاعر ضمير عصره ـ نوعا من البناء الهارموني يضيف الى الكلمات والصور المستخدمة عمقا اضافيا .

ويلجأ الشاعر الى طريقة اخرى لتجسيد الخط الاساسي في القصيدة حين يحيطه بلحظات من التوتر شبيهة بالظلال مهر الشاعر في التقاطها وتجسيدها من خلال التناقض الموجود في الحقيقة الانسانية والواقع : لم يبق الا الموت في الاطلال والهياكل

لم يبق الا الشعر في ذاكرة الاحقاب
وبعد الف سنة سينضج الاعناب
ويملأ الاكواب
ويبعث المغني
فآه ثم آه يا صبابتي وحزني

ولم يقف البياتي عند هذا الحد ، لان هدفه كان اكثر من وضع قصة شعرية مؤثرة ، ولذلك يمتد الصوت ويشير الى ما وراء واجهة الحياة العصرية من اوجاع وضعف فنشعر بأن المأساة لم تزل مستمرة وان تكن مختفية في ثوب عصري مما يضيف معنى جديدا لمحنة ابي العلاء:

ضفادع الحزن على بحيرة المساء
كانت تصب في طواحين الليالي ـ الماء
تقارض الثناء
ما بينها ، وتنشر الغسيل في الهواء
وتشرب الشاي وفي المكاتب الانيقة البيضاء
والصحف الصفراء
كانت بقيء حقدها على الجماهير ، على المارد وهو يكسر الاغلال
ضفادع كانت تسمي نفسها ((الرجال))

ولكن هل معنى ذلك ان الحياة لا تتغير وان الظلم الانساني حقيقة ابدية ؟ هكذا يدعي البعض ويجيب البياتي في ختام قصيدته :

الارض رغم حقدكم تدور
والنور غطى نصفها المهجور

واذا كانت قضية التزام الانسان والفنان قد طرحت على نحو موضوعي في قصيدتي ((عذاب الحلاج)) و ((محنة ابي العلاء)) وكشف الشاعر لنا عن ابعاد الموقف الالتزامي ، متخذا من حياة كل من الشخصيتين وعاء يصب فيه رؤيته الخاصة محملة بشعور تاريخي حي، فان قضية الالتزام تطرح تجربة الشاعر نفسه في قصيدته الطويلة الاخرى بعنوان ((سفر الفقر والثورة)) ونحن نشعر فيها بانه استمد صورة الفقر من حاجته الى الوطن والاهل والصديق ، وبانه استمد الثورة من حياته نفسها . وطوال القصيدة يتردد الاحساس العميق

الصارخ بالوحدة وبالعذاب والحلم ، بالعدالة ووحشة الانتظار والليالي الضائعة والمنفى والادراك المفزع للمصير والسحرية الممزجة بالمرارة :

ـ من يشتري قصيده
لقاء هذا القمر الغارق في بحيرة المساء
فوق القمم المديده
لقاء هذا المطر الاخضر ، هذي الزهرة الفريده
ـ ومن يفك الشاعر الاسير
من اسره من ظلمات عصرنا ، من قلق المصير
ـ الشعر كان قدري يا قاتلي الاجير

وهكذا نرى مدى ارتباط الشعر بحياة عبد الوهاب البياتي ، ان الشعر بالنسبه له كمال قال ذات يوم بحق « نوع من العبادة يحميه من الكثير من الضياع او المعرج والسقوط . نوع من الطهارة ، ودفاع عن النفس ضد الموت والعادية ، بدونه تصبح الحياة لا مبرر لها،ولذلك فهو يكتب دائما ، ولا يتوقف عن الكتابة . وينعكس هذا الاحساس على « قصيدة سفر الفقر والثورة » التي تصور حياة الشاعر مطاردا من منفى الى منفى ، لا يصحبه سوى اغنياته وايمانه العميق بالمستقبل، وتتداخل الصور المستمدة من الطبيعة وعناصر الوجود الدائمة مع الصور المستمدة من واقع الحياة اليومية ـ والاحداث المعاصرة لتكسب الكلمات والصور قدرا مزايدا من الكثافة والثقل .

ان عبد الوهاب البياتي منيفظ دائما ، ففي المنفى يكتسب الانسان هذه العادة . انه يحلم بعيون مفتوحة :

بعيدا انت يا وطني
كحلم عبر نافذة القطار اراك في الوسن
نخيلك في ضباب الفجر ايقظني

ان هذه القصيدة تعكس لنا من حياة الشاعر صورة فريدة للاغتراب:

ونحملني ليالي الصمت للمقهى
شريدا ماله مأوى
يجوب شوارع المدن التي نامت بلا نجمه
على عكازة ويغيب في الظلمه

ولكنها تعكس ايضا وفي نفس الوقت صورة فريـــدة للمقاومة والصمود :

قلت لكم : اعود
لكنني احترقت في الموانيء البعيده
وكانت القصيده
اسلحتي الوحيده
بها قتلت اعين اللصوص والضفادع البليده

ومن تكامل هاتين الصورتين ينبثق الشعر في قصيدة « سفر الفقر والثورة » . وفي اغلب قصائد الديوان ، غنيا في بساطة حاسمة مؤثرة، فالشاعر لا يقف عند سطح التجربة ، وانما ينفذ الى الداخل ، لا يتوه في الاحشاء وانما يتجه الى القلب مباشرة :

وكانت العباره
اجنحتي بها اطير وبها اخترق الحصار
في سنوات النار
وكانت الامطار
مركبتي بها اليك انهب القفار
فالف الف ليلة انتظار
شيبت الفجر الذي يحبو على الجدار
فكن صباحي ، واحتي المعطار

ان الصباح والواحة المعطار اوصاف عادية تماما للشيء المنتظر تحققه من البناء الجديد . ولكن الشاعر في الفقرة السابقة من قصيدته (الى الاتحاد الاشتراكي العربي) قد نفذ الى داخل التجربة ، ووضع الصباح والواحة في نهاية طريق شاق مقفر ، وضعهما في المكان الذي يكتسبان فيه طاقة جديدة ، وعذوبة غنائية .

ان القيم الاصلية في تراثنا الادبي تكون جانبا هاما من شاعرية البياتي . فهو لا يكف عن التأكيد اذا ما طرحت قضايا الشعر والفلسفة او الشعر والسياسة بان الشاعر مفن قبل كل شيء . ونعتقد انه نفس المعنى الاشتقاقي لكلمة شعر في اللغة اليونانية القديمة . مما يؤصل وجهة نظر الشاعر ويسحبها على المستوى الانساني العام . والبياتي يحاول اقامة جسر بيننا وبين تراثنا العربي حين يستمد منه موضوعات اكبر قصائد الديوان « عذاب الحلاج » و « محنة ابي العلاء » حتى لا نصبح مقطوعي الصلة بماضينا فلا نكتسح في زحام العرضية . والبياتي يسيطر عليه انفعاله احيانا فيتحول الى مفن كما في قصيدته الاولى الى ولده علي :

البحر مات
والعشب فوق جبينه يطفو وتطفو دنيوات
كانت لنا فيها اذا غنى المغني ذكريات
غرقت جزيرتنا وما عاد الغناء
الا بكاء

وكأن موجات من الحزن تتدفق الواحدة تلو الاخرى ولا شيء اخر. ولكنه يسيطر على انفعاله نوعا ما في القصيدة الثانية المهداة الـــى ولده فنرى وراء صورة اغترابه وشوقه صورة اخرى لعالم لامبال :

مدن بلا فجر تنام
ناديت باسمك في شوارعها ـ فجاوبني الظلام
وسألت عنك الريح وهي تئن في قلب السكون
ورأيت وجهك في المرايا والعيون
وفي زجاج نوافذ الفجر البعيد
وفي بطاقات البريد
مدن بلا فجر يغطيها الجليد
هجرت كنائسها عصافير الربيع
فلمن تغني ؟ والمقاهي اوصدت ابوابها
ولمن تصلي ؟ ايها القلب الصديع
والليل مات

هذا الذي يرتبط بالاشياء ارتباطا حميما جدا وينفصل عنها في الوقت نفسه ، الذي يجد نفسه في كل لحظة مواجها لقدره ومصيره كالمحكوم عليه بالاعدام ، الذي ينظر الى الشيء ولا يراه ، الذي ينتظر من جاء ولم يجيء في الوقت نفسه ، الذي يكون في يقظة ابدية دائمة. انه المنفي ، انه الشاعر عبد الوهاب البياتي رائد الشعر الحديث،صنع من سنابل القمح والتاريخ والرياح والمطر والربيع والفجر قصيدة «الى عبد الناصر الانسان» وآمن بان الفنان الحقيقي لا بد وان يكون صوته مع التقدم لان وقوفه ضد الانسان يخرج به عن كونه فنانا .

واذا كانت ثار من حين الى اخر زوبعة حول من هو مكتشف الشكل الجديد في الشعر فان عبد الوهاب البياتي بلا جدال هو اول من حدد المعنى الثوري للشكل الجديد ، باعتباره الوعاء المناسب لان يصب فيه المضمون الثوري لحركة الواقع المعاصر . ويكون بذلك اول من حقق الوحدة بين الشكل والمضمون المتلائم معه ، واذا كان هنالك من الشعراء من سبقوه في كتابة القصائد دون التقيد بعدد التفعيلات من بيت الى اخر مثل الشاعرة نازك الملائكة او الشاعر نزار قباني اللذين قدما لنا في النهاية موضوعات وتجربة تقليدية في شكل جديد ولا يكونان قد فعلا شيئا اكثر من وضع بدعة جمالية ، فان عبد الوهاب البياتي يظل هو المكتشف الحقيقي للشكل الجديد في الشعر . لانه اول من وهبه الروح التي تضمن له البقاء ، الروح الثورية التي لا تتحدد بالمضمون الايديولوجي للعمل الفني فحسب وانما بما يحتوي عليه العمل من مضامين انفعالية وعاطفية بل وبيولوجية ايضا ، فان الروح الثورية انعكاس ايجابي صادر عن حياة باكملها .

وبعد ، فقد حاولت اللحاق بتلك الروح الثورية في ديوان سفر الفقر والثورة ... ولكن ما اصعب هذا العمل ! ان ثورية عبد الوهاب البياتي تتمرد على كل تحديد !

القاهرة

شوقي خميس